بريد الشوق

عدت من القاهره لاجد فى انتظارى رسالة الاخ الدكتور دقش تحمل فصاصات (هوامش بقلم الرصاص) التى تكرم فيها باضاءة شمعة فى دهاليز الغربة التى مشيناها طواعية و كراهية و نشر صورة تذكارية لمرحلة تاريخية خالدة فى حياتى فى حنتوب الثانوية مقرونة باخرى للقطة اثرية فى مسيرة المليون خطوة التى مشيناها و قد كتبت علينا و لا ندرى اين تتوقف المسيرة...

سعدت بالرسالة وتذكرت برنامج (ما يطلبه المستمعون) من اذاعة امدرمان حين كان أشبه بساعى البريد أو مرسال الشوق بين أطراف السودان فى طوفان الاغانى بين الحبيب و الحبيبه و بين الام و الولد المسافر من سنين و قطعا لم يكن مغتربا خارج البلاد فى ذلك الوقت ولكنه مجاهدا فى ابعد الظن فى احد مدن اطراف السودان..جنوبا او شرقا او غربا يعمر الارض التى استخلفه اللّه فيها و ما زال اهلها يشكون ظلم (التهميش) فى وقت يعيش فيه السودان كله خارج دائرة الضوء و قطعا خارج هامش الحياة بالمعنى الذى يتباكى عليه اليوم من صنعوا ذلك الواقع الاليم بالامس و للّه فى خلقه شئون.

و ربما يذكر قارئ موضوعى السابق(ان للملاقاة اوقات) ما تؤكده حقيقة ماحدث لى حين وعدت الصديق دقش و مجموعة من اخوان الصفا بزيارة الخرطوم فى طريقى من القاهرة و بعضهم وعدنى باحتفاليه يوبيليه و اخذت اهئ زينتى و اعد مفتخر الثياب كما يقول الراحل سيد خليفه..و صلت القاهرة للتقديم لابنتى طبيبة الاسنان للحصول على الماجستير فى طب الاسنان . وبدا ماراثون الهرولة ما بين الجامعة و السفارة السودانية و السفارة الاماراتيه ووزارة الخارجية المصرية لتوثيق الشهادات لتقديمها الى مجلس القبول للمعادلة وكانت القاهرة تعيش عطلات افراح و اتراح زادت المشوار طولا ..

بقيت فى الشقة و تركت ابنتى تواصل السعى بين الوزارات مع بعض الاقارب من زملائها فى الجامعة..و جاءتنى تحدثنى عن مرارة المعاناة وكيف ان احد المسئولات فى السفارة السودانية قالت لها (اننى شاهدت والدك فى التلفزيون السودانى بالامس) و استغربت مادامت تعرف والدى لماذا لا تكفينى كل هذه المعاناة.؟!.و كانت ابنتى ذاتها لا تعلم شيئا عن الحلقة و التى سجلت فى ابوظبى مع الفضائية السودانية فى برنامج (مراسى الشوق) و اذيعت ونحن فى القاهرة ولم نتابع البرنامج لظروف موضوعية..ولكن أسعدنى اننى ما زلت فى البال و لم ارحل عن الذاكرة رغم هذا الزمن الطويل و شعرت بحلاوة الانتماء الى الوطن و لو عن طريق الوسائط الاعلاميه

و قلت لابنتى كان ينبغلى ان تشكرى هذه السيدة التى عرفتك من معرفتى خلال برنامج شاهدتنى فيه صوتا و صوره فقط !!دعينى أحدثك عما حدث لى لحما ودما!! وقبل ميلادك! وفى عام 1983 عندما تقدمت شخصيا للالتحاق بالتدريس فى جامعة الخرطوم طلب منى شئون التوظيف شهادة الثانوية العامه(كمبردج آنذاك) وقد كنا عشرين طالبا فى كلية الطب فى كل السودان يعرفون تفاصيل شهادات بعضهم البعض وكان اكثرهم اما استاذا فى الجامعة او عضوا فى مجلس الوزراء

وعندما ذهبت بصحبة الصديق البروفسير الهادى محمد الشيخ الى وزارة التربية و التعليم قال لى الموظف: متى تخرجت ؟ قلت له عام 1959 قال لى : لو كنا نحتفظ بهذا الكم من الوثائق كل هذه السنوات لحولنا الوزارة الى مستودعات..و اردف قائلا : يا دكتور انت جاى تدرس ام تدرس ؟ ضحك الدكتور الهادى وقال: دعك من هذا ورجعت بلا عودة..أقول لنفسى مع المتنئ:

وان يكن الفعل الذى ساء واحدا...فأفعاله اللائى سررن ألوف

قلت لابنتى اذا طلبوا منى شهادتى الثانوية للالتحاق بجامعة تخرجت منها داخل الوطن فليس غريبا ان يطلبوا منك اثبات هويتك و انت مغتربة و تدرسين خارج الوطن وقد كتبت عن هذه الواقعة فى كتابى (رحلتى مع الطب النفسى –ص 94 ..الموقع الشخصى اللاكترونى)

وبعد ان فرغنا من انجاز المتطلبات كان قد نفذ رصيد اجازتى ونفذ وقود قدرتى على دخول ماراثون آخر فى الخرطوم و عدت تاركا ابنتى فى القاهرة لتواصل ماتبقى من المشوار و بعثت رسالة الكترونية قصيرة من هنا اعتذر فيها لكل اولئك و هؤلاء لان الحلقة التلفزيونية التى سجلت فى ابوظبى و أذيعت وانا فى القاهره اعطت انطباعا باننى كنت هناك مؤكدا ان العبد فى التفكير و الرب فى التدبير و ما تشاؤن الا ان يشاء الله و قضت مشيئته الا اصل الخرطوم رغم العدة و العتاد..واعدهم بزيارة قريبة باذن الله

وجدت رسالة الصديق دقش تنتظرنى وفاء بوعد قطعه بينى و الصحيفة و كلف نفسه معاناة اقدرها له و لا اريد ان اكررها معه و لكننى فى ذات الوقت فى غياب التفاعل بين الكاتب و القارئ احس كالمطرب الذى يغنى فى مسرح بلا رواد.و لكننى أعلم ان سيكلوجية الصوت و الصدى هى الوقود الحقيقى لجذوة الابداع.فالصوت المنبعث من جمهور المستمعين هو الذى يرفع سقف النجاح و يخفض عتبة الفشل..و الفريق الذى يلعب وسط جماهيرة يكون اكثر جرأة و اقوى دافعية من الذى يلعب خارج ساحته و يفقد حرارة النبض الذى يدفع فى شرايينه حركة الدماء..وقس على ذلك كل الوان الابداع الفنى.

واذا جاز لى هنا ان اذكر الاخ الدكتور الباقر عبد الله رئيس التحرير بزيارته الكريمة لى فى ابوظبى فى التسعينيات من القرن الماضى عندما كان مقيما فى لندن و خصنى مع الاخ الصحفى المغترب خضر عطا المنان يزيارة فى منزلنا بشارع النصر فى ابوظبى فقد اهدانى نسخة من صحيفة الخرخوم ووعدته بالكتابه و اهديته نسخة من كتابى (أضواء على النفس البشرية) وو عدنى بالتعليق ولم يسعدنى الحظ للكتابة و لم يمكنه الوقت من التعليق وقد تكون الفرصة مواتية للتواصل من جديد فى ظروف استثنائية تتواتر فيها منابر الحوار ويتنامى تلاقح الافكار..

و يقينى انه قادر على وجود الصيغة الملائمة فى عصر الوسائط الاعلامية المتعددة تعفى الاخ دقش من معاناة حمل الجسور المعلقة (صخرة سيزيف) على اكتافه المثقلة بحديد المسئولية كما يقول صديقنا الراحل الشاعر صلاح احمد ابراهيم وسوف اكون اول من يكتب فى (بريد الشوق)..

أبوظبى - 2008/05/15